الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقّين بن باديس، مؤلّف هذا الكتاب

(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سماجة

ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر

وإنّـه، لما تهدَّنَـتْ لنا الأحوال وقـرَّ مُلْكُنا قَـرَارةَ بمُصالَحـة المُعْتَمِد، ومُعَاقَـدةِ الرُّومىّ علـى المُهادَنـة، وتَوْطـينِ النفس على ما نُعطِيـه[1] فى العام؛ انصرف نَظَرُنـا إلى إصْلاح أمْر بلادنا، والفتش على رَعِيَّتنا، والكَشفِ على العُمّال إن كانوا عادِلين او ظالِمين. ولمّا شعر بذلك خَدَمَتُنَـا ومَنْ كان له مَذْهَبٌ فى نصيحتنا، انتدب جميعُهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على مـا خفـى عنّا زمانَ تلك الفِتْنة؛ فكُنّا لا نقبل من أحَدهم على الآخَر إلا بعد رويَّةٍ وهجوم على الحقيقة، حذرًا أن يكون مقال أحَدِهم حسدًا للآخَر أو طَلَبًا لا يُتَّقَى الله فيه.

وكان سِمَاجَة، وزيرُ دَوْلَتنا المتقدِّم ذِكْره، قد شعر بذلك وأحسَّه مِنّا؛ فاغتَمَّ للأمر * [ق ٣٥ أ] وعمل فى نفسه، وشكاه إلى إخوانه؛ وكان فيما قال لهم: «إنّما كُنّا نطمع بالتحكُّم علي هذا الرئيس والتمكن من دَوْلته مدَّةَ أيّام صبوته، يعنى صغرَ سِنّه. وأمّا الآن، فلَسْـنا نَجِد سـبيلا إلى ردّه عن دَوْلته، لا بفِئَةٍ تحمينا، ولا بصغرِ سن نَجِد به السبيل إلى صرفه عند العامّة وتسفيه رأيه، لا سيمّا إذ كان رأيُه النظرَ من دَوْلته والبَحْثَ عنها.» فقيل له: «لَسْتَ[2] تَجِد سبيلًا إلى أكثر من المُداراةِ له، والإتيانِ لمرغوبه، وقلّةِ الخِلاف عليه لئلا يتمكن عدوُّك منك، ويشـتفى حاسِدك عليك، فهو، إذا وجد منك الذى يرغب، لم يلبث أن يُمِلّ النَّظَرَ والخِدمةَ ويُفَوِّض الأمْرَ إليك! ثمّ أنتَ بالخيار عند غَفْلته وإقباله على راحته! وعليك بإشغالِه بالنساء، وعَجِّلْ له ابتياع الرقيق! ولَسْنا نأمن أن يكون يشنأك من تَحْجيرك هذه الشهوات عليه؛ فإنّه نَظُنُّ به ما يُظَنُّ بمن كان فى سنّه!».

ففعـل ذلـك. وكانت هذه الفـترةُ التى دبَّرها من سعادتنا وتمكيننا مـن آمالنا فى الذى ذَهَبْنا إليه من الاسـتبداد بُملكنا، فإنّه شَـبَّكَ علينا المَعاقِل ببنى عَمّه؛ وأشَـدُّها علينا مدينةُ المُنَكَّب. فجعل يطلق لنا العِنَان فى كلّ ما نُريده، واشترى الرقيق، وجَعَلَنا نَخرج إلى النزاهة فـى البلاد، يُرى بذلك الإنصـاف والتأتّىَ، إذ كان الرجل متَثَبِّتًا، خائفًا من سـوء العاقبة،

(١) أصل: «نعطوه».

(٢) أصل: «ليس».

مع أنهّ كان خائفًا من قبْل ذلك من أجْل كُتُب استَعْمَلها على أَلسِنَتِنا أقوامٌ من أعدائه إلى طائفةٍ من صِنْهَاجَة يأمرون فيه بقتله، ونَحْنُ بـراء منها، فظفر بالكُتُب، وأنزل بنا التهمة، وأمر بقَتْل أُولئك المُسَمَّين فى الكُتُب، وغَيْرهم ممَّن اتَّهم من كرَائم باديس – رحمه الله.

وكانت تلك المعانى مقدّمات تُغازلُهُ لعَزْلَته. فلمّا كانت وجهتنا إلى وادى آش عن اختياره، وقد كنتُ علمتُ معتَقَده فى ذلك كلّه بالقياس والحَزْز مع بعض الأخبار، قلتُ فى نفسى: «هذا رجل قد اعتاد الأَمْرَ * [ق ٣٥ ب] والنَّهْىَ، ورأى من يَقْظَتنا للدولة ما لم يكن يُريده؛ وليس فعْله هذا بهواه؛ وكلُّ شىءٍ يضطرُّ فيه الإنسان، فإلَيْه لا يؤْمن خلافه، والرجعة عنه، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه! فنكون أبدًا نكابد منه مالا يوَافِق! وإن فاتَتْنى هذه المرّة، أكُنْ كَمَنْ نُبِّه على أمْر وحذِّر من نفسه، ثمّ أو بق نفسه إلى المضرّات. وإن أغْضَيْنا هذه المرّة وعاد إلى ما كان، ثمّ نَرَى منه خلافًا، لم نقدر عليه بشىءٍ، إذ يكون نَظَره لنَفْسه أجْوَد من هذا النظر، فإنَّ هذا الأَمْر جاءَه فجأةً لم يحتسبْه ولا ظُنَّ به: والفُرَصُ تُمرُّ مرَّ السحاب! فمادُمْنا[1] نَحْن بالخيار عليه، لا نتربَّص حتى يكون هو بالخيار علينا!»

فأراد إشاعة عَزْلَتِه بالحضرة عند إمكانِ السَّفَر، فلم نَرَ لذلك وجهاً إلاّ ونَحْن خارجون عنها ، ليكون أشْنَع فى الناس وأقطَع ليأس الرعايا، مع انّى، إذا حركتُ هذا بالحضرة، دخَلْتُه الصّناعة، وكتم عن الناس، وشغُبَت امرأتُه من الدار.

فلما وَصَلْنا وادى آش، جعلتُ من يدوس إلى الرعيّة أن ترفع بمَظالِمها، وكان عامِلَها ابْنُ أبى جوش، صَنيعةَ سِمَاجة المذكور؛ فأمرتُ عند شكواها بثقافة. فأنكر الناس ذلك، وهان عليهم أمره. وجمعتُ الرعايا والوزراءِ، وحَدَّدتُ لهم حَدًّا يَقِفون عنده ألاّ يجعلوا بَيْنى وبَيْنهم واسِطةً، وأمَرْته هو بالتزام ما يخصُّه لنفسه، وأن لا وزير لدَوْلتى إلاّ نفسى، وحَددت لكل خادم ما تكون طريقتُه أن لا يتعدّى سِوَاها. فسرَّ بذلك جميع الوزراء، إذ تساوَتْ أقدامهم، وانكشف حِجابى لهم، لكى تكون حوائجهُم إلىّ دون من هو مِثْلُهم أو دونَهم. واغتبط الرعايا بعزلة الظلَمة عنهم. وعزلتُ كلّ من يُتَّهم بخيانة، وقدّمتُ عُمّالًا إلى الجهات، أريد تجديد الدولة. وعزلتُ بنى عمّه من الحصون، ولقد كان فريقٌ منهم، لمّا سمعوا بذلك، يفِرُّون منها ويترُكونها حتّى يوَجّهَ إلىَّ جُنْدُها عن قائدٍ. ولم نَلْقَ فى ذلك * [ق ٣٦ أ] كُلْفة مَشَقَّةً. ولم يَبْقَ إلاّ ابن عَمّ له، صاحِب المُنَكَّب، فجزِع، إن تَرَكَهُ، أن يوجَد إليه السبيل بسَبَبه، فأخبرنى بالأمر، وسألنى إرْسال قائدٍ إليه، فعزَل. وسأل زَاوِىُ زوالَ أخيه بَلْبَار عن وادى آش. فكان ذلك كلّه على أمْكَن سعادة وأجْوَد تقدير، للذى شاء الله من تمام أيّام وزَارته.

ثمَّ أمنْتُهُ فى نفسه، وأبقَيْتُ عليه جميعَ أمواله إلاّ الذهب والفضّة، وسوّغْتُه إنْزالاً ينعاش فيه، وأمَرْتُه بلزوم مَجْلِسى وأنّه مُكَرَّمٌ طول حياتى. فقَبلَ الرجلُ ذلك كله، وأطاعنا فى كلّ أمْر أرَدْناهُ دون خِلاف ولا إظْهار لمَعْصية، فإنّه كان جزوعًا، قليلَ الجرأة على العظائم،

(١) أصل: «مادام».

ولأنّــه لم يَجِدْ فَئَةً تُعينُه. ولثِقَتِى بذلك أمَّنْتُهُ فى نفســه، ومضى عليه دَهرٌ طويلٌ على لزوم المَجْلِس دون خِدْمة، فلم يَتْرُكهُ.

وخــاف منــه مَنْ ســعى فى أمره من أهــل الدولة؛ وتوقَّعــوا منه العودة، فلــم يزالوا يُغْرون بــه، وينقلون عنه من قبيــح القول، ويخافون من مغبَّة أمْره، ما لم نَرَ معه وَجْهًا لإمســاكه فى البلدة، احتياطًا على أنْفُســنا، ورُبَّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل، فَهلَكَ من أجْلِها. ولا اسْتَطَعْنا حينئذٍ على مُعاقَبته لِمَا ارتكب فى صَدْر الدولة من قَتْل أولئك النساء ومَنْ جرى مجراهُنَّ، لشركته فى ذلك مع سِــوَاهُ من شــيوخ تَلْكَاتَة، فيســوء ظنُّ الجميع، وتفسد من سَبَبه الأحوال، فلا يقوم فســادُ المَلْكة وســوءُ عاقبة الأمْر بما يلزم من إقامة الحدِّ. فرأينا من الصواب أن يرتحل عنَّا دون تغيير ولا إبلاغ فى عقوبةٍ، استمالةً لأنْفُس الناس؛ وبَسْطًا لأموالهم. فخرج بجميع أثاثه وخَدَمه ودَوابِّه وجميع ثيابه وفرشــه؛ مشَــيِّعًا إلى المَرِيَّة. فكان المُعْتَصِمُ يُكرمــه من أجْلِنا، ولا ييأس أن نصرفَــه إلى منزلتــه، فيقدِّمَ ذلك الإكرامُ عنه. وخَرَجَت امرأتُه بحَلْي كثير من الجَوْهَر، حاشــى ما خفى عنّا من المال * [ق ٣٦ ب]؛ وإنَّما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضَّة أوَّل ولايتنا، وَقْتَ فَتْح بيتِ المال، ولم نتحقَّق ما اكتسب منها مدَّةَ خِدْمَتِه لنا، ولا بَحَثْنا عن ذلك.

٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المَرِيَّة
تعاقب أحداثه وحلّه

ثُمَّ قُمْنَا من بعده فى أمور البلاد والرعايا بأحْسَــن قيام وأتَمِّه، وجَعَلْنا الأمناءَ على البحث والتعقُّب ورَفْع المَظالم إلينا. ودام الأمْرُ على ذلك دَهْرًا طويلًا.

وإنَّــه، فى إثْر مَضْى سِمَاجَة المذكــور إلى المَرِيَّة، بَلَغَنا أنَّه حقَّر الدولة لابن صُمَادِح وطمَّعه فيهــا، لِمَــا كان يَــرَى من طمــع الرجل الذى قد شــهر به - رحمــه الله - ، فإنَّه كان كثيرَ الطمع، قليلَ الجســر، ضعيف المِنَّة. فعمل قَوْلُه فى نفســه، ورَجَا ان ينالَ على يدَيْه فُرْصةً بُمداخلةٍ أو إدْلالٍ على مَوْضِع فائدةٍ، كالذى تَهيَّأ له مع اليهودىّ.

ووافَقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قَائدَى النَّظَر ما بين فِنْيانَة والمُنْتُورى مُشاجَرةٌ على الجهات، ولم يتهيَّأ حيازة ذلك النَّظَر إلاَّ بُبُنْيَان المُنْتُورى المذكور. وقد كُنْتُ، عند وجهتى إلى فِنْيانَة، أرسلتُ إليه رســولًا يُعلمه بورودى عليه، وســأَلْتُه تلــك القُرَى المصاقِبة لها وإنهــا أوْلَى بذلك المَعْقِل لقرْبها، وتطارَحْتُ عليه فى المُكارمَة بها، فكان من جوابه للرسول: «هَيْهات! ليست[1] تُمْلَكُ الأقطارُ إلاّ بالبُنيان والسَّــيف!» فلمَّا عملتُ مُهمَّ ذلك الحِصْن على المَرِيَّة، وبَلَغَنى ما كان من تطميــع سِمَاجــة، وتذكَّرتُ مُراجعته عن القُــرَى، أغْضَبَنا ذلك ولم نُؤَخِّــرْ أن عاجَلْنا بُبُنْيان ذلــك المَعْقِــل. فقام على المقام بالجِدِّ والقــوَّة، وجَعَلْنا فيه حُماة الرجــال، وضاقت المَرِيَّةُ من أجْلــه، واحْتِيجَ إلى بُنيان مَعاقِلَ غَيْرِها، تَوَقُّعًا أن نســبق إليها، فيكون عِوَضًا عن المُنْتُورى. فقام بُنيانُها على ســاق، وصارت كلُّها حرزًا للجهــات التى لنا، وأقْفالًا عليها، وضَرَرًا على

(١) أصل: «ليس».

جِهات المَرِيَّة. فعيلَ بالأمر، وضاق به ذرعًا، وكان لا يُوجِّه [ق ٣٧ أ] عسكرًا إلى موضع إلا هزمَ، وأسَرْنا كبارَ رجاله على طُرْلُيش.

وكان عِدَّةُ ما بُنِي عليه سبعة حصون. وكنتُ مع هذا آمُرُ[1] أَهْلَها بالرفق وحرْز جهاتها ألا يتطرَّق إلينا طالِبُ شر. وإنَّى إنما بَنَيْتُها صَولةً وتَهَيُّبًا، حتى نُصالحَ الرجُلَ على ما يَقَع بموافقتنا، ويعرف أقدارنا. وإنه، لما ظهر من كَلَب الرُّوم على الأندلس ما ظَهر، ورأيتُ نفسي طافِرة متى رُمْتُ مع ابن صُمَادِح فِتْنةً، وتبيَّن لى ضعفُه عن المناظرة، صرفتُ نفسي عن التمادى والإلحاح، وقلْتُ: «أنا فى مِثْل هذا مُدْرِكٌ! لا يفوت من الأمر متى أَرَدْناهُ شيءٌ. وحَسْبُنا ما قد ظهر إلينا، فالإبقاء أَوْلَى، وإصلاحُ الأَمْر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه - خَيْرٌ من تَهَيُّئنا لقُوىً لا يُرام! ولقد كان المُظَفَّرُ على بَصِيرةٍ من إثباته لدَوْلته وإبقائه عليه، ولنا فيه أسوةٌ وقُدوة!»

فصالحت الرَّجُل، وأَمَرْتُ بهدم تلك الحصون، ونُشِرَت المَرِيَّةُ من كفن. وتمكَّن بعد ذلك، ودَنَا، وصار أَصدَقَ الناس لنا:

ولا خَيْرَ فى حِلْم إذا لم تكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

فلم نَزَلْ متعاقِدَيْن مُتَشاركَيْن فى الحلو والمُرِّ إلى انصرام الأَجل.

٤٤ - توجيه عسكر ضدّ تميم بن بُلُقّين صاحب مالَقة وأخى المؤلف، ونصره إيّاه

ثمَّ لم نلبث بعد ذلك إلّا يسيرًا حتى جاءَنا من أخينا تَميم فحمةٌ لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورَنا، وصُلْحَنا مع سلاطين الأندلس، وما صنعناهُ بجهات المريَّة، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأولى، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفِتَن والشغل الشاغل. فحسب الزمانَ كلَّه واحدًا. ولما سُكِت عنه قبلُ، لهذه العِلَّة على ما قدَّمنا ذكره من بدءِ أمره، تمادى على تلك الأفعال فأرسل قَطائعه إلى حرب المُنَكَّب وشَاط، وخُوَيلةً فى إثرها للضرب على النَّظَر المُصاقب لها. وأتانى أهل تلك الجهات شاكين بالأمر؛ فقلتُ فى نفسي: «هذا إنسانٌ لم يُبصِرْه الدهر، ولا حكمَتْه التجارب: ومتى تركناه [ق ٣٧ ب] على هذا ذائبًا، ولم نؤَدِّبْه عليها، تمادى شرُّه، وحسب أنَّ ذلك لهيبته، فازداد، ولا تنفع فيه مَوْعظةٌ ولا قيلُ!»

فلم نجد بُدًّا من تأديبه وزجره، فإنَّ الشىءَ تحقره وقد ينمى! وإنما كان ذلك الإغضاءُ لمعانٍ تَوَقَّعْتُ، وانتظارًا به لحسن العودة ورويَّة البصيرة. فإذا قد يَئِسْنا من هذا وأَمِنَّا ما يُشْغِلنا عنه، فَتْركُهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق!».

ووَافقَ ذلك الزمان اشتغالُ المُعْتمد بأمر أَلْفُونْش، فإنَّه نازَلَ إشبيلية لتباعات تسبب بها، وضاقت الحال من أجْله. فاتَّفق الأمر وتهيَّأت الأسباب على حين غفلة وانتهاز فُرصة؛ فنهَضْنا بأنفسنا إلى ذلك القطر، فوالله! ما سمع بنا أهلُ حصوبة، ولم نتدارَك بالخروج صبيحة ذلك اليوم، حتى وَرَدَ علينا عن حِصنِ القَصْر بجهة صَالَحة أنَّه صار فى مِلْكنا وطاعَتنا رعيَّتُه، وهو حِصنٌ

(١) أصل: «نأمر».

أوّلُ من يطوع وآخِرُ من يعصى لذَوِى الغلبة والظهور، فاستبشرنا بذلك، وصِرنْا إلى الحَمَّة، نروم منها أمرَ ذلك النَّظر. فأعْلِمْتُ بصَخْرة دُومِس (ولا معنَى لِرَيَّة إلاّ بها، وهي موسطة البلد)، وقد اجتمع فيها جلُّ عساكر مالَقة مع قوّاد صاحِبِها. فلو انتُزِعَتْ تلك الشوكةُ، كان أمْرُ غيرها يسيرًا هيِّنًا. فاسْتعددْنا لقتالها، وضارَبناهم فى أوّل النزوع عليها. فجزع مَنْ فيها من الجُنْد، وأرسلوا إلينا تلك الليلةَ يطلبون الأمان، ويخرجون بخيلهم سالمين فى مَهَجِهم. فأجبْتُهم إلى ذلك، عسى أن نكون نستميل غيْرَها بهذه الأيادى، وأخلوا الصَّخْرَةَ، وصار فيها جُنْدُنا.

وانتقلْنا عنهم إلى حِصْنٍ كان صاحبُ مالَقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أوّلَ قيامه، على ما رسمناه، فلم يكن إلاّ ساعة قدومنا عليه وتخاذَلَ مَنْ فيه، ودُخِل قسرًا، وهو حِصْن أشْتَنير. ثمَّ نَهَضْنا إلى مَرِيَّة بَلِّش، فألقت بيدها. وأدرتُ التمادى إلى بزلْيانة.

وكان كَبَّابُ * [ق ٣٨ أ] بنُ تَميت صاحبُ أُرْجُذُونة، قائدُنا، قد استقْلَك فى تلك الجهة، وزعم أنّه لا يتعزّل إلينا. فلمّا رأى ظهورنَا فى هذه المعَاقِل،

خاف أن يَصْفُوَ الجوُّ ويصرف البال إليه، فرام ان لا نَصِلَ إلى بزلْيانة وحذّر من ذلك. وكان وراءَنا حِصْنُ مُنْت مَاس، رأيتُ أنه لا تتمكّن لنا مُنازلةُ مالقَة إلاّ بالراحة منه، فإنّه يمنع المِيرة إلى المحَلّات. فانصرَفْنا من بزلْيانة نريد مُنْت ماس المذكورة، وأظْهَرْنا لكبّاب الأخْذ برأيه، فسرَّ بذلك.

ولما نهضتُ إلى مُنْت مَاس، رأيتُ مَعقِلًا عظيمًا، قد اجتمعت به جميع الرعايا، فعَرَضْنا عليهم الطاعة، فأبوا، خيفةً منهم أن نكون غَدًا نُصالح أخانا ويُعاقِبَهُم، فأمناهم من ذلك، واجتمع فيه كلُّ فاسِق من أهل الشرّ، وأعْرَضْنا عليهم الحرب بأنفُسنا، وتركْناهم على ذلك، ورتّبْنا عليهم الرُّتب وانصَرَفْنا إلى غرناطة، وفى انصرافِنا، طاعَتْ لنا غيُرها من المعاقِل، مثل أيْرُش وصَخْرة حَبيب. وكُنا فى أوّل وجْهتنا قد أخَذْنا رُيِّيْنَة بالسيف قسرًا، وطاعت لنا جُطْرُون، وهُمَا قَصَبَتا مالَقة. وطارت فى تلك المدّة عن يده عشرون مَعْقِلًا. وانْصَرَفْنا إلى مُنْت ماس ثانيَة، ويئسوا من تَرْكهم، وطاع أهْلُها، وثقّفْناها، وهدَمْنا من الحصون ما نستغنى عن إمساكه بغيره، وأمّنْتُ الجِهَة وبحثتُ عن فوائدها، وصار ذلك مُقَيِّدًا، وأوْسَقْنا أهْلَها خيرًا.

ولما رأى أخُونا ما دهمه من الأمر، وقيامَ رعيَّته عليه، خاف على نفسه من أهل البلد، مع تَبْريزنا نَحْنُ عن مالَقَة فى حين أخْذِ مُنْت مَاس. واشتغل بعض الناس بقتال انحازوا إليه دون مَوْضِعنا، وتبعهم أكثرُ عسكرنا، فانتهز أهلُ مالَقة الفُرْصة، لما رأوه من قلّةِ مَن فى المَوْكِب معنا، وخرجوا على باب فُنْتَنَالّة، وحملوا على * [ق ٣٨ ب] العسكر حملةً اختلط فيها الفريقان. ولمّا رأيتُ فِرار مَنْ معنا واختلاطَهم بجُنْد مالَقة، أمْسَكْنا على العَلامات، وأمَرْنا بضرب الطبل بعد تولّيه، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لما رأوا بثبوت العلامات. ثم كانت لنا عليهم الكرّة، بعد أن أسر بعض رجالنا، فأنقذوهم، وهزموا عَسْكَرَ مالَقة، وكان بها من جُنْد البَرْبَر نحو ثلاثمائة فارِس أنجاد، إلاّ أنَّ الحزم دَاخَلَهم، ونزع إلينا أكْثَرُهم.

ولمَّا رأى بعضُ من معنا تلك الهزَّة، أشار علينا بالانصراف، وخوَّفنا من تَقْوِية ابن عَبَّاد أن تَدْخُلَها ما لا يُمكن، فقُلْتُ: «إن الانصراف على هذه الحالة عَجْزٌ! وسيشيع فى الجهة كلِّها أنَّ رجوعَنا لم يكن إلاّ عن هزيمة! فالأَوْلَى أن نكسِّر يومَيْن نُبَرِّزُ فيها كلّ يوم فى الموضع الذى الْتِحَمَتْ فيه الْخَيْلُ، نُريهم: إن كانت بكم قدرة، فعَاودوا ما فَعَلتُمْ» وثقَّفْتُ العسكر لئلّا يطيش منه أحَدٌ. فكان ذلك. وأقْلَعْنا بعزّةٍ حتى وصَلْنا نَظَرَنا على أتَمِّ ما يُمكن. ولو رَفَعْنا أوّل تلك الوهلة، خَلَتْ جميعُ المعاقِل التى طاعت لنا، وكأنَّنا ما صَنَعنا شيئًا.

فَبَقِيَت الحال ضيِّقةً على مالقَة. وأرسل إلينا أخونا، يستعطف ويسأل العَفْوَ وإقالة العثرة. فدبَّرْنا أمْرَه فى أنْفُسِنا، وعملْنا فيه رأيًا سديدًا، وعلِمْنا ما هو عليه من الحَرْص والشره والحدَّة، وأنَّ صَرْفَ المَعاقِل إليه تَقْوِيَةٌ لشرِّه، وأنَّه، وإن عاوَدَ بما كان عليه، لم تقدر له على شىءٍ، ولا تطوع بَعْدَها رعيَّتُه إن أرَدْناهم بَعْدُ، لِمَا يَرَوْن من إسلامنا لهم إليه، وخافوا أن يُعاقِبهم، مع ما كانوا ينقمون عليه من سوء الطريقة معهم، يُعْلنون بذلك، وأخذوا منَّا ميثاقًا غليظًا ألاّ نُسْلِمَهم إليه، وعاهَدْناهم على ذلك بأيمانٍ مغَّلظة. وظهر من أقاويلهم أنَّهم، متى رُدُّوا إليه، لم يجيبوا، وأدخلوا الداخِلة، وصيَّروها إلى رئيس غَيْرنا. فخِفْنا من هذه [ق ٣٩ أ] الوجوه ما يجب أن يتوقَّع.

ثُمَّ لم نَرَ وَجْهًا فى الإلْحاح عليه، فرُبَّما أخْرَقَ، وصَيَّرَها إلى بِوانا، كالذى صنع ماكْسَن غُمنا بَجيَّان، فتكون مُصيبةً للبلدة، وعارًا عظيمًا، من تَوْليج أخينا وشقيقنا إلى غَيْرنا، وتغريبه فى البلاد، وأُمُّه فى قيد الحياة، ولو لم تَكُنْ، فأبقَيْنا عليه، وقد أدَّبْناه [1] بما كفى، ووسَّعنا عليه فى النَّظر ممَّا لم تَبْقَ فيه من الرعيَّة، وكان مُهِمًّا عليه، وأخْلَيْنا له رُيَّينَة وجُطْرُون، فإنَّ رعيَّتها نصارى، وهُمْ بَيْن النَّظَرَيْن، لا يقدرون على نفاق مع أحَد، وأعطيناه قُرى يتَّسع فيها لَرافِقِه. وبقيَتْ بيده حُصُون الغَرْبيَّة مِثْل قَرْطَمَة، ومِيشَش، وحُمَارش، وأعطيناهُ قَامَرَة، بَلَدَ الزرع، ليتَّسعَ فيها للحَرْث. وحرَّمْناهُ غَيْرَها، التى يتوقَّع من أهْلها ومنه: إن استأْسَدَ بها، لم يؤْمَن شَرُّه.

وَبقِيَتْ حالُه فى أفضل الأحوال، مارَضِيَتْ به الوالِدة وحَمِدَهُ جميعُ الناس، صِلَةً للرحم، وعَفْوًا عند المقدرة، وتأْديبًا لما يخشى عاقبته. وقرَّ حالُه قرارَه، ونَفْسُه فى هذا علينا حاقدةٌ، تَبْلُغُنا عنه أقاويل سيئَةٌ، ونحن لا نعرج عليها ونقول: «إضْرَارُه بالقول خَيْرٌ من إضراره بالفعل، لو صَرَفْنا إليه المَعاقِل! وعَلِمْنا أنَّه فى عافية ونعمة طائلة ممَّا عنده من الأموال التى ترك جدُّه بمالقة، لم يحوج قطُّ إلى نفقة دِرْهم منها، ولا نالَتْه فِتْنةٌ، ولا بلغة مكروهٌ، وكُنَّا نَحْن أمامَهُ نُقاتِل عنه العَربَ والعَجَم، ونعطى عنه الجِزْية، وهو فى دَعَة، فإذا كان بيده فوق ما يكفيه لقِلَّةِ تَمَوُّنه واحتياجه إلى نفسه فى التَمَوُّن[2] والنفقات، فإنَّ هذا كثيرٌ، وهو تحت نِعَم جَّمة!» فطابت أنفُسُنا على ذلك، وكَفَّ هو عن كثير ممّا كان يرتكب

(١) أصل: «ودبناه».

(٢) أصل: «الفتون».

من القتل والظلم، حتى أنّه لا يَرِدُنى من عنده رسولٌ من أهل بَلَده أو جُنْده * [ق ٣٩ ب] إلّا ويوصّى أن نشدّ بيدى عليه، ويقول لى: «بتأْديبك له فَلَحْنا وكفٌ عنّا، وإنّه، متى يأْمن منك أمْرًا، طغى علينا، وشقينا به. وما فى الدنيا أشْعَرُ منك فى إمساك تلك العَاقِل عنه، فإنّك كنت بعد هذا لا تلجمه أبَدًا!» فخرجت الأُمور خَيْرَ مَخْرَج، وأمّنّا جِهَتَه بسَتْره فى مكانه، ولم نفجع فيه أُمّه.

٤٥ - ذكر ثورة كبّاب بن تَميت وثورة بنى تاقْنَوْت ونهايتهما

وإنّ كبّابَ بن تَميت، قائدنا بأُرْجُذُونة وأَنْتَقَيْرة، لمّا راى ظهورنا على مالقَة، أكْبَرَه ذلك وشقّ عليه، وعَلِمَ انّ الأَمْرَ منْجِزٌ إليه، إذ كان قد أضْمَرَ نفاقًا وطاعةً فى معَصِيةٍ، لِمَا تأَسّس له هناك فى حين الفتنة من ضَمّ الأطْعِمة، والاستحواذ على أموال الناس بقَطْعِه السُّبُل، وانقطاع أهل الشرّ إليه من كلّ قطرٍ، وكان أمْرهُ من ذُنُوب سِمَاجَة عندنا، الذى سوَّغة البلد، وجَعَلَه مِلْكًا فى يده ويدى بنى عمّه، حتى شقى به. ولمّا تمّ صُلْحُنا مع المُعْتَمِد بن عَبّاد، خالَفَنا فيه، وجعل يُفسد وبنقض ما أبْرَمْناه من ذلك، ولا يقرُّ عن الضرب. فجَعَلْت أُقدمُ إليه المَرّة بعد المَرّة، وأنذُره عاقِبة اتّباع هَوَاه، وأقولُ له: «إنّ للمُصالَحةِ وقتًا ينبغى للمَرْءِ حِفْظُها، فإذا أَفْسَدْتَها، فأنْتَ من المُطالَبين لى!» فلا يَزْدَجِرْ مع هذا كلّه، ولا ينفع فيه وَعْظٌ، لإعجابه وتحامُقِه، وكانت كُتُبُ المُعْتَمِد أبَدًا تَرِدُ بالشكوى منه فأضمر لنا من كفّه غائلةً. وكانت من سعادتنا أنه لم يجمل المعاملة مع أحد الفريقين فلما طال الشكوى به، قلتُ لرسول المُعْتَمِد: «لا أَسْتَطيعُ على عَزْل كَبّاب إلاّ بالمُجاهَدة فى مُفاسَدته؛ فإن اسْتَوْثَقْنا منكم أن يترامى عليكم ولا تقبلوه، فنَحْنُ ضامنون لعَزْلَته!» فارتبط معى على أن لا تُقبل له رجعة ولا تُقال له عثرة. فألْحَحْتُ على كبّاب فى أن ينزل عن المَعْقِلَيْن، ثِقَةً منّى بما رَبَطتُه مع المُعْتَمِد، فزاد طغيانُه، وخاطَبَ على المقام إلى ابن عَبّاد * [ق ٤٠ أ]، يرغب فى تصيير الحصون إليه: فأرسل إلىّ المُعْتَمِدُ بكتابه، وحضّنى على شدّ اليد عليه والراحة منه، ففعلتُ ذلك. وهذا ممّا تقدّم ذِكْرُه من إنصاف المُعْتَمِد لنا وقِلّةِ خِلافه علينا مُذْ فارَقَ ابنَ عَمّار، كالذى أجْمَلنا نَحْنُ معه فى أمْر بَيّاسَة، وقتَ نفاق أهْلِها وأرْسَلْتُ كتابهم إليه.

وإنّ كَبّابًا قبل ذلك، لمّا رأى صَنِعينا بمالقَة، على ما قدّمناهُ، نظر – فى زَعْمه – لنفسه وقال: «هذا ما صنع بأخيه! وطاعت له الرعايا! فكيف بمن هو عبدٌ من عبيده؟» وأحسّ ذلك فى نفسه ابنُ تَاقْنَوْت، صاحبُ مدينتنا، وكان امْرَء سَوْءٍ، كثير الطغيان، بعيدًا من الخير، مؤثرًا للشرّ، وكان له أخٌ بحصن جَرِيشة، قد سَوَّغَهُ أيضًا سِمَاجةُ إقْلِيمَ نِيمَش كلّه، وطال مكثه فى الحصن سبعة أعوام، فسوَّلت له نفسه، مثل ما أضْمَر كبّاب من النفاق، فتعاقدا جميعًا وتحالفًا أن لا ينعزل أحَدُهما إلاّ بعزلة الآخر.

فشمرتُ للأمر، فأوّل ما ابتدأتُ به النّظر فى أمر ابن تاقْنَوْت، إذ كان أهمّ علينا منْ أجلْ مَدِينَتنا التى كانت بيده، وجَريشَة بيد أخيه. ورأيتُ معاقَدةَ المُعْتَمِد عليه آكَدَ، إذ علمتُ من حَنَقه على كبَّاب أنه لا يقبلَ له معذرة، فعامَلَنى على ذلك أيضًا بأحسن مُعامَلة، وتَسرَّح بعسكره قُوَّة إن احْتِيج إليه لحرب جَرِيشة، وشارَكَ غاية المشارَكة فى التوسُّط بَيْننا وبَيْنه، وأرسل إليه رسوله، يقول له: «إن كنْتَ جَزَعْتَ من رئيسك. فاترُكْ حِصْنه! وأَضْمَنُ لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان، وإن كنتَ لا تَثِق بهذا كلّه. فانزلْ إلىَّ بعد أن أعطيك عَهْدَ الله وميثاقَه ألّا أُسْلِمَك إليه أبداً!» فما كان جوابُه إلاّ إن قال: «وما تصنعون بالحِصْن؟» قال: «أُصيِّره إلى صاحبه!» فأبى وقال: «إنّما أريد أن أجعل المَعْقِل بيد من يُذِيقه الشرَّ ويتولىَّ فِتْنَته!»

فأتانى ابنُ * [ق ٤٠ ب] الأصْبَحىّ رسولُ المُعْتَمِد، المتوسِّط لخبره، فقال لى: «اعْزِمْ على مُنازلة الرجل! فليس فيه إلى الخير طريقٌ، وهو متأهِّبٌ للشرِّ، لا يقنعه إلاّ الإضرارُ بك!» وكان فى هذا كلّه يقطع السُّبُلَ، ويُخيف الناسَ، ويقتل أهل الرُّفَق، ويُطْلِع أموالهم إلى الحِصْن، ماكان أشْهرَ فى الناس من الشمس، حتى لا يتجرَّأ أحدٌ أن يجتاز بشىءٍ من تلك الجهات.

فاستخَرْتُ اللهَ على منازلته، ومكثتُ عليه ستَّةَ أشهر، لاُ نبالى عمّا ننفق عليه من الأموال، إلى أن رقَّتْ حالُه، وأنا فى هذا كلّه أُقدِّم إليه وأُبْلِى العُذْرَ عنده، وأخوه فى ثقافى. وأمرْتُ أخاه بأن: «اكتُبْ إليه أنّى متى أخَذْتُه على غَيْرِ عَهْدٍ، برَّحْتُ بقتله، وإن كان نزل على الأمان قَبْل أخْذه، ولو بساعةٍ، لم يتوقّع منّى شيئًا!» فوالله! ما تَرِدُ عليه هذه الكُتُب إلاّ ويزداد طغيانًا وشتمًا وحماقةً، حتى يَسَّرَ الله أَخْذَهُ، ودُخِلَ الحِصْنُ، وكفى الله شرَّهم، وطهَّرهم من البلاد، وأراح منهم العباد.

وشاوَرْتُ كبارَ البلدة وفُقهاءَها فى خَبَرهم، فَخَيَّرونى فى الذى حضَّ الله عليه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا ﴾ (١).

فرأيتُهم مستوجبين للصَّلْب، وأنه أدْهَى وأمرُّ من أن يُنْفَوا من الأرض. فإن شرَّهم لا يؤمن. وكثيرًا مّا كان المسلمون مُرْتَقِبين لِمَا حلّ بهم! ووَالله! ما صرفتُ وجهى لأحَدٍ خاصَّةً وعامَّةً من أهْلِ بلادى إلاّ ووصف لى من أفعالهم القبيحة ما وتروابها جميع الناس. ولقد كان يومُ قَتْلِهم للناس عيدًا كبيرًا من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرِّهم.

وإنّ كَبَّاب بن تَمِيت المذكور، لَما رأى ما صُنِعَ ببنى تاقْنَوت، زاده ذلك حماقةً واستيحاشًا، وخاطَبَ المُعْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذِكْرَه. فأرْسَلْنا إليه نُعرض عليه التخلّى عن المَعْقِلَين، فأبَى ذلك، وأعدَّ، واستعدَّ بآلَةِ الحرب، وضمَّ الحرَّاسة وأخاف السُّبُل، وقطع * [ق ٤١ أ] الطرق وأتى بما هو مشهور من شرِّه. فاستخرْتُ اللهَ على مُنازلته، وأمرتُ بضمِّ الأجناد

(١) سورة المائدة – الآية ٣٣.

واجتمـاع الأنداب لقتاله، فكان ذلك على أتمّ ما يمكن. ولما أحسّ من نفسـه بالضعف، وأنّه لا مَلْجأ له ولا مَهْرَبَ إلى أحدٍ بقلّة إقبال السـلاطين عليه، تَرامَى علينا، وسـأل العَفْوَ، خوفًا أن يحلّ به ما حل ببنى تاقْنَوت إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة، فأعطيتُه من العَفْوْ ما سـأل، ليكون ذلك قدوةً لمن سـألَ منّا العفْوَ بعد الإسـاءة، فلا يَيْأس مـن فعلها، إن دفعنا إلى مثلها بعدها، وكانت الأولى عِظَةً وشُعْفَةً لمن نَفَرَ، ولم يقبل الأمان، وتمادى على الطغيان.

وكنّا لا نُقَدِّم شـيئًا ولا نؤخّرهُ من هذه الأمور إلا بعد رويّةٍ وفكرةٍ فى العاقبة، ونَدَعُ مشورة النـاس، فإنّا بَلَوْنـا منهم قلّة التحقيق، والنطْقَ على الهَوَى: فإمّـا مَفْتونٌ بأمْرٍ يُزَيّنه ويحمل عليه، وإمّا كارهٌ لَخيْرٍ أو مطـالِبُ لأحَـدٍ، فيجـعلنا نخير عن مالا يـطابق هـواه، ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [1]. فَلَمّـا بَلَونا من الناس هذه الشـمائل، وأنّ كل أحدٍ يحبُّ أن تجرى الأحكام على اختياره، رَجَعْنَا إلى إيثار اختيارنا، إذ كان نظرُنا لأنْفُسِنا أرْشَدَ من نَظَر غيرها، «وما حَكَّ ظَهْرَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ!» [2].

وكُنّا مع هذا نَصْغَى إلى قول الناس بالأُذُن، لا بالعَقْل، فنقيس عليه ونختَبِر مُرادَه، ولا نُريه الخلاف، فنُوحِشَـه، غيْرَ أنّى أُوسِـع لهم صدرى ويَسَـعُ جَهْلَهم حِلْمى، وأقضى بعد ذلك ما أريد، إذا لم أكُنْ على أمْرٍ مجبورًا ولا مقهورًا، إلّا ما قَهَرتْنى عليه السياسة، وما تُحْمَد له العاقبة، كَمَن يتجرَّع الدواءَ لِبُرْءِ الداءِ، ولم أكُنْ أغْتَبِنْ لأحَدٍ فى الحقِّ من جهالة ولا غفلة، إلّا أن تكـون مسـامحةً وتَغَافُلًا لأمرٍ يُراد، أو مُتباعَـةً للقول فى حينه تَلَطُّفًـا وقِلّةَ خِلافٍ على قائلـه، ثـمّ أصرافه تارات * [ق ٤١ ب] فالجاهلُ عندنا مَنْ إذا أشـارَ برأيٍ، ثم رأى أنه صُنِـعَ ضِـدُّه، أن يعـاودَ القول فيه: فـإن كان فَطِنًا، من العَيِىّ التكـرار، وإن كان لم يعلم، فالتذكيرُ به غفلةٌ منه أو اسـتنقاصٌ لخدومه، اللّهُمَّ إنّه لم يسـمع منـه الأولى، فتجرى عن الأُخْـرى، ولعلّ خِـلافَ الرئيسِ عليه الأمر قد ظهر له، وخفر عـن القائل، ولم يُرِد اطّلاعَه عليـه، فيكون فـى رأيه البَرَكة والخير للفريقـيْن، وهو يلوم علىٍ ما لا يعلـم أصْلَه ويتمادَى جهالةً، وينطق هَذَرًا، وتنحرف نيّتُه على غير معنًى، فيكون ظالمًا لنفسه.

فأوْدَعْنـا كَبّابًـا حِلْمًـا، وأمّنّاه، وبقى فى جملة الجُنْد تحت إحسـان وإحمال، غَيْرَ أنّى لم أسْتَعْمِلْهُ فى مَعْقِل، ولا مَكّنْتُه من صخَرَةٍ، إذ «لا يلدغ مُؤمِنٌ من جُحْر مَرَّتَيْنِ [3]».

* * *

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

(٢) انظر «مجمع الأمثال» للميدانى (ط القاهرة، ١٣١٠)، جـ ٢، ص ١٤٧.

(٣) انظر «مجمع الأمثال» للميدانى ج٢ ص ١١٠.